صراعات صفرية

كيف تُغير حرب غزة بنية الأمن في الشرق الأوسط؟

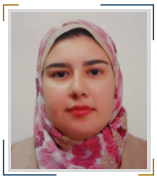

رابحة سيف علام

خبيرة بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

أرخت حرب غزة بظلالها الثقيلة على بنية الأمن الإقليمي؛ فقد نسفت معادلات الاستقرار التي كانت راسخة لعقود وغيرت من أنماط التفاعل بين القوى الإقليمية والدولية على الصعيدين العسكري والدبلوماسي. كما دفعت القضية الفلسطينية مرة أخرى إلى بؤرة الاهتمام الشعبي والحكومي على المستويين الإقليمي والدولي، وفتحت أفقاً جديداً لأدوات المحاسبة القانونية وتحقيق العدالة للضحايا كما لم تفعله الحروب السابقة. ولكنها فتحت في الوقت نفسه الباب لمخاطر أمنية كثيرة على مستوى الأمن الإقليمي والأمن الداخلي لدول الإقليم على حد سواء.

تغير معادلات الاستقرار في الشرق الأوسط

تمثل أحداث السابع من أكتوبر 2023 وما تلاها من حرب موسعة في غزة نقطة فاصلة في التاريخ الحديث للشرق الأوسط ولا تزال تداعياتها تتكشف يوماً بعد يوم على أكثر من مستوى. فمن جهة جاءت هجمات حماس باجتياز السياج الحدودي بين غزة وإسرائيل كمفاجأة عسكرية غير متوقعة كشفت مستوى جديداً وغير مطروق من مستويات الحرب غير المتماثلة. باغتت حماس أقوى الأنظمة الأمنية والعسكرية في المنطقة وشلت حركتها حتى أكملت تنفيذ هجماتها وسحبت أغلب عناصرها مرة أخرى إلى داخل غزة مصطحبة أسرى من الضباط والجنود والمستوطنين الإسرائيليين بهدف مبادلتهم بأسرى فلسطينيين في السجون الإسرائيلية.

أصابت هذه الهجمات التفوق العسكري الإسرائيلي الذي بُنيت عليه معادلات الاستقرار في الشرق الأوسط منذ سبعينيات القرن الماضي، على الأقل فيما يتعلق بمجريات الصراع بين إسرائيل وجيرانها العرب، في مقتل إذ بدا معها مهدداً بشكل كبير في ظل عجز تل أبيب عن الرد على أكبر اختراق في تاريخها لعدة أيام متتالية. وعندما جاء الرد العسكري عبر القصف الجوي ثم الاجتياح البري، بدا أيضاً عاجزاً عن تحقيق الأهداف الدقيقة التي أُعلنت في بداية الحرب. وبدا أن كفاءته تنحصر في إحداث دمار شامل وغير مسبوق من حيث عدد الضحايا المدنيين وسحق البنى التحتية والمرافق الحيوية في قطاع غزة. وقد تجلى الانكشاف الإسرائيلي بشكل أكثر وضوحاً عند فتح جبهات جديدة من جانب أذرع إيران في كل من لبنان والعراق واليمن وسوريا لتبدو معه قدرة الردع الإسرائيلي هشة وهزيلة.

ورغم ضبابية مستقبل الأحداث المرتبطة بالحرب الراهنة فإن ما أحدثته من اختراقات لا يبدو أنها قابلة للمعالجة في المدى المنظور، خاصة وأن المنطقة لم تتعافى بعد من تداعيات موجة "الربيع العربي" وما صاحبها من تغيير لأنظمة وفتح ساحات للحروب الأهلية وحروب الوكالة وصعود وسيطرة لتنظيمات إرهابية[1].

وفيما بدت الترتيبات الأمنية الإقليمية تحاول الالتفاف على هذه التداعيات لرسم خريطة تعاون عابر للمعسكرات التقليدية كي تربط حلفاء واشنطن بآليات اعتماد أمني واقتصادي متبادل، هزت أحداث 7 أكتوبر هذه الآليات بشكل عنيف. إذ اهتزت الثقة في الآليات الأمريكية للأمن الإقليمي ومدى نجاحها في حماية أمن الدول الحليفة إذ فشلت في حماية أمن إسرائيل من الضربة الأولى المباغتة. كما أعادت القضية الفلسطينية وضرورات الحل النهائي إلى الواجهة، وأحيت تضامن الشعوب العربية مع القضية ورفعت من ثمن أي فجوة قد تبدو بين مواقف الحكومات وشعوبها في هذا الصدد. كما عززت المخاوف السابقة بشأن برنامج إيران البالستي الذي بدا أن خطورته أقرب وأكثر جدية من البرنامج النووي الذي لا يزال بعيد الأثر، ورغم ذلك حاز بشكل مضلل على الاهتمام الأكبر من الغرب.

هزت هذه الحرب وضع الاستقرار أو "الستاتوس كو" في المنطقة وفتحت شهية أطراف كثيرة لتنفيذ مشروعات مؤجلة وطموحات توسعية، بما يعني أن وضع الاستقرار

لـن يعـود قريبـاً إلى المنطقـة مـا لـم يتنـازل أحـد الطـرفين عـن هـذه المشروعـات والطموحـات. كمـا أعـادت بـؤرة الاهتمـام إلى صراعـات الشرق الأوسـط بعـد أن كانـت قـد انتقلـت مؤقتـاً إلى سـاحة الحـرب في أوكرانيـا خلال العامـيين الماضـيين. وفيمـا يبـدو أن التداعيـات الجيوسياسـية والعسـكرية ضخمـة، فـإن التداعيـات الاقتصاديـة ليسـت بالقليلـة أيضـاً خاصـة فيمـا يتعلـق بحركـة التجـارة والملاحـة العالميـة وأسـعار الغـذاء والوقود وتقاسـم مهـام الإنتـاج بين الشركات العالميـة والمحليـة فـضلاً عـن مسـتقبل المشروطيـة السياسـية على المسـاعدات الاقتصاديـة لـدول المنطقـة.

تأثير الحرب في تفاعل القوى الشرق أوسطية مع القوى الدولية

أكـدت هـذه الحـرب مـرة أخـرى دور الفاعـلين العسـكريين مـن غير الـدول وأدوات القتـال غير التقليديـة في الحـرب غير المتماثلـة، فبـدت معهـا الجيـوش الكـبيرة وأنظمـة التسـلح العملاقـة غير ذات جـدوى في مسرح عمليـات حضري يعـج بالسـكان المدنـيين. ولعـل لجـوء إسرائيـل إلى العقـاب الجماعـي بالقتـل والتجويـع كوسـيلة غير مبـاشرة للسـيطرة على الأرض بعـد فشـلها في التعقـب الدقيـق للأهـداف العسـكرية لحمـاس، قـد أفقدهـا فعليـاً العلـو الأخلاقـي الـذي تدّعيـه وتجنـد المناصريـن على أساسـه حـول العالـم. كمـا بـدا الانتشـار العسـكري الأمريكـي في المنطقـة أقـرب مـا يكـون لنقطـة ضعـف يسـهل معهـا اسـتهداف واشـنطن بـدلاً مـن كونـه مظهـراً مـن مظاهـر القـوة والتفـوق العسـكريين خاصـة عندمـا أسـفر اسـتهداف القواعـد الأمريكيـة عـن مقتـل جنـود.

بيّنت الحرب الراهنة كذلك أنه ورغم استقرار الانقسامات في المنطقة بين محورين أساسيين أحدهما مرتبط بالمصالح الأمريكية والآخر مناوئ لها ومرتبط بإيران، فإن أبجديات الأمن الإقليمي على الجانبين باتت مهددة بالتفعيل العسكري لهذه الاستقطابات واختبار المدى الذي يمكن أن تبلغه قدراتها القصوى. فتوقيت الحرب كشف عن محاولة من حماس لوقف تقدم مسار السلام والتطبيع بين إسرائيل والدول العربية غير المجاورة لها. كما أنه في الوقت نفسه أدى إلى تعثر خطوات التطبيع في العلاقات بين السعودية وإيران وأعاد الأخيرة إلى عسكرة خطابها حول الأمن الإقليمي. بينما أدى انفلات القصف والقصف المقابل إلى اتساع نطاق الحرب إقليمياً لتهدد بشكل متزامن ولأول مرة ومنذ عقود كثيرة أمن شرق المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب وربما قد تصل فيما بعد للخليج العربي.

وبينما تندفع إسرائيل في حربها المنفلتة في غزة تدعمها واشنطن بقدر ضئيل للغاية من الرشادة المتوقعة من الدول العظمى، فإن الأذرع الإيرانية المتحالفة مع حماس تسعى لإثبات وجودها ونجاعتها في مناصرة القضية الفلسطينية كي توسع من شرعيتها وشعبيتها في أوساطها المحلية وحضورها الإقليمي على حد سواء[2]. ولعل أبرز مثال على ذلك توسع دور القرصنة البحرية من جانب مليشيا أنصار الله الحوثية وتوسع القصف الصاروخي من جانب المليشيات العراقية الموالية لإيران. هذا بخلاف حفاظ حزب الله على مشاركته المتوقعة من موقعه في إحدى دول الطوق ذات التاريخ السابق في الصراع العربي الإسرائيلي. فإذا كان حزب الله اللبناني يشارك من موقع الحليف القوي ذي المكانة المميزة في الحلف الإيراني، فإن الأطراف الأخرى تتطلع لإبراز مكانتها واكتساب أدوار أكبر باندفاع قد يهدد بقاء وتماسك هذا الحلف بشكل جدي. وما كان استهداف القواعد الأمريكية على الحدود السورية الأردنية وسقوط ثلاثة جنود أمريكيين وإصابة العشرات إلا مثالاً جدياً على مدى خطورة الاندفاع المستند إلى الطموح الزائد لهذه المليشيات. وفيما انخرطت واشنطن في ضربات جوية ثأرية ضد هذه المليشيات الموالية لإيران في كل من سوريا واليمن، يبدو أن معركة استعادة قدرة الردع لا تنطبق فقط على حرب الإسرائيليين في غزة ولكن امتدت أيضاً لتشمل حرب الأمريكيين في سائر النقاط الساخنة في المنطقة.

ولكن للمفارقة كشفت هذه الحرب أيضاً عن تصدعات غير خافية في الأحلاف القائمة على الجانبين. فمن جهة حلفاء واشنطن، بدا تضارب عميق للمصالح والأمن القوميين بين مصر والأردن من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى خاصة في شأن استخدام القوة العسكرية المفرطة وتوسيع رقعة الاستهداف في غزة وخطط التهجير القسري لسكانها إلى دول الجوار العربي. وهنا بدأ تنسيق المواقف بين مصر والأردن مبكراً لمقاومة هذه الرغبة الإسرائيلية الجامحة، حتى قبل أن تنضح مواقف الدول الأخرى في إطار القمتين العربية والإسلامية المنعقدتين بالرياض؛إذ نضح تدريجياً الاصطفاف في الموقف العربي مع تباينات قليلة بين حلفاء واشنطن وحلفاء إيران، قلل من أهميتها آنذاك الدعم الأمريكي غير المشروط لإسرائيل الذي كان في أقصى درجاته في بداية الحرب ثم بدأ يخفت تدريجياً مع طول أمدها.

في معسكر حلفاء إيران على الجانب الآخر، تبدو المواقف أكثر تجانساً ولكنها لا تخلو أيضاً من بعض التفاوت في التطلعات. فالتأكيد المستمر أن إيران وحزب الله وبقية المليشيات المحسوبة على الحرس الثوري الإيراني لم تكن على علم مسبق بهجوم حماس في السابع من أكتوبر ليس إلا محاولة لتحديد المسؤوليات ومن ثم تحديد مدى الخسائر المتوقعة. ورغم الانخراط في الحرب على جبهات لبنان وباب المندب وانطلاق الصواريخ من الأراضي العراقية والسورية على أساس مبدأ "وحدة الساحات"، فإن التضامن بالقصف الصاروخي لم يكن حاسماً بشكل جدي في حماية أهل غزة من القتل والتجويع والتهجير جنوباً[3].

لذا برزت تساؤلات مشروعة حول إذا ما كان هذا أقصى ما يمكن أن تقدمه إيران وحلفاؤها لحماية غزة، وحول جدية التضامن مع مقتل وتهجير المدنيين على نطاق واسع في غزة، رغم أن حلفاء إيران أنفسهم يتحملون المسؤولية ذاتها عن جرائم مشابهة في الحرب السورية. بل إن الترويج الإسرائيلي لمشروع التهجير الشامل لسكان غزة ما كان ليكتسب هذه الأرضية الواسعة لدى النخبة الإسرائيلية إذا لم تكن قد رأته يتحقق بالفعل قبل سنوات في سوريا برعاية إيرانية من خلال تهجير نصف شعبها للخارج وسط قبول إقليمي ودولي لافت. ولم تكد سوريا تعود للصف العربي ضمن موجة مصالحات تبحث إعادة اللاجئين السوريين وإعادة الإعمار، حتى انفجرت الحرب في غزة مخلفة نحو مليونيّ نازح بحاجة بدورهم إلى مساعدات عاجلة وخطة شاملة لإعادة الإعمار.

وما تزال تداعيات هذه الحرب تتكشف على مستوى التفاعل بين القوى الإقليمية والقوى الدولية ومحاولات الدفع دولياً بالضغط على إسرائيل لكبح تنفيذ خطتها الشاملة لسحق غزة. فالتفاعل الأبرز كان عسكرياً وممارسته بالأساس إيران عبر حلفائها في المنطقة، خاصة باستهداف الحوثيين للسفن الدولية المتجهة لإسرائيل وهو التفاعل الأعمق تأثيراً على نطاق عالمي واسع ودفع العديد من شركات الشحن الملاحي الدولية لتغيير مسارها بعيداً عن البحر الأحمر[4]. فيما بقي استهداف المليشيات العراقية للقواعد الأمريكية في سوريا وبعض المواقع العسكرية الإسرائيلية من دون تأثير واضح قبل أن تتدحرج كرة النار وصولاً إلى سقوط جنود أمريكيين في قصف قاعدة "البرج 22" العسكرية في الأردن في 29 يناير 2024[5]. الأمر الذي استدعى رداً عسكرياً من واشنطن سواءً للثأر لجنودها أم لتأمين الملاحة الدولية جنوب البحر الأحمر، وهنا اتضح أخيراً أن التصعيد العسكري الذي انتهجته أذرع إيران ليس مجانياً بل له تداعيات تشي بتصعيد مقابل من جانب الأمريكيين قد يهدد فعلياً باتساع نطاق الحرب الإقليمية وطول أمدها[6].

في المقابل، برز التفاعل الدبلوماسي محققاً نجاحاً بارزاً بالوصول إلى هدنة مؤقتة في الأسبوع الأخير من نوفمبر 2023، إذ كانت الوساطة المصرية القطرية حيوية للغاية في فتح قنوات اتصال نشطة بين طرفي الصراع والمعسكرين الراعيين لهما لتخفيف الاستقطاب والتصعيد المتبادل. ورغم نجاح هذه الوساطة في إحراز هدنة مؤقتة وفقرات وجيزة من تبادل الأسرى، فإن تجدد الطموح الإسرائيلي بإتمام مهمة سحق غزة قد أفشل امتداد أثر هذه الهدنة بل على العكس دفع إلى توسيع نطاق الحرب تباعاً على جبهات

جديدة[7]. ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن تخيل تخفيض محتمل للتصعيد وصولاً إلى هدنة دائمة أو طويلة الأمد دون تركيز الضغط الدولي والإقليمي على إسرائيل لوقف خططها لاستعادة الردع العسكري وللسيطرة على حالة الإنكار في أوساط نخبتها الحاكمة والاعتراف بفشل نظامها الأمني والرضوخ لدفع ثمن هذا الفشل بالتنازل لإتمام صفقة التبادل المنشودة.

لابد لانقلاب معادلات الاستقرار الذي أحدثته الحرب أن يُفضي إلى تنازلات قاسية من جانب الطرفين، وقد دفعت حماس بالفعل قسماً كبيراً من هذا الثمن بالتدمير الشامل الذي أحدثته الحرب الإسرائيلية على غزة وربما ستدفع المزيد حال انتهاء الحرب. ولكن يبقى أن تدفع إسرائيل من فائض طموحها للتفوق العسكري قبل أن يقضي على ما تبقى لها من مقومات للبقاء في الإقليم. ولذا فإن رعاية أية مشروعات منفردة مع إسرائيل على طريق السلام والتطبيع والتجارة لن تفضي إلا إلى تماديها المتزايد في حالة الإنكار، بل على العكس من ذلك يجب وضع الشروط لاستمالتها إلى الحلول الدبلوماسية بدلاً من الإفراط في دعم خيارها العسكري[8].

هنا بدا الأمر الرئاسي الأمريكي بفرض عقوبات على المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية في 2 فبراير 2024 خطوة في الاتجاه الصحيح، ولابد أن تتلوها خطوات مشابهة من قوى دولية وإقليمية، بهدف استعادة الاستقرار الإقليمي، عبر استبعاد الحلول العسكرية والدفع في طريق الحلول الدبلوماسية، لتمهيد الطريق لحل نهائي بإقامة دولتين مع ضمان وتوفير أسباب البقاء الآمن لكل منهما.

عودة مركزية القضية الفلسطينية

أسهمت الحرب الراهنة في إعادة القضية الفلسطينية إلى بؤرة الاهتمام على مستوى الشعوب والحكومات والمنظمات الدولية، بل كشفت أيضاً عن فشل كل مساعي الالتفاف على ضرورة إقرار حل نهائي عادل ومستدام لهذه القضية ذات الأبعاد الجيوسياسية والإنسانية الضخمة. كما كشفت أيضاً عن أنماط جديدة للتعاطي مع القضية الفلسطينية على المستوى الدولي، إذ دشنت جنوب إفريقيا عبر المدخل القانوني طريقاً جديداً للعدالة المحتملة للفلسطينيين عبر تحريك دعوى لدى محكمة العدل الدولية تتهتم إسرائيل بارتكاب إبادة جماعية في غزة.

ولعل من أبرز تداعيات هذه الحرب هو عدم القدرة على استيعاب هذه الحصيلة الثقيلة من الضحايا والمصابين المدنيين دون التضامن معهم بشكل واسع على المستوي الشعبي دولياً وإقليمياً. إذ نشط مناصرو السلام عبر شبكات التضامن السياسي والأهلي مع فلسطين في مختلف الدول الغربية، للمطالبة بوقف فوري لإطلاق النار وحماية المدنيين وتوفير المساعدات لهم ومحاسبة المتسببين في هذه المأساة الإنسانية غير المسبوقة في التاريخ الحديث. وقد انصبت الأنشطة بالأساس على تنظيم المظاهرات الحاشدة في شوارع العواصم والمدن الغربية الكبرى، بالإضافة إلى تنظيم الوقفات أو الاقتحامات الاحتجاجية في الأوساط السياسية والإعلامية، لإسماع صوت فلسطين والمطالبة بوقف فوري لإطلاق النار.

أمـا على المسـتوى الإقليمـي، فالمظاهـرات المتضامنـة مـع فلسـطين جـاءت حاشـدة في مناسـبات محـدودة ووفـق قواعـد ضابطـة لـم تسـمح بخروجهـا بشـكل عفـوي متكـرر. لكـن الملمـح الأبـرز للناشـطية المتضامنـة مـع فلسـطين كان على مسـتوى حـملات المقاطعـة لـلشركات الأجنبيـة التـي تسـاند دولهـا حملـة إسرائيـل العسـكرية في غـزة. وقـد نشـطت فئـات جديـدة وغير متوقعـة للانضـواء في مثـل هـذه الحـملات مثـل: اليافـعين والمراهـقين وربـات البيـوت وكبـار السـن، وهـو أمـر قـد لا تظهـر نتائجـه بشـكل مبـاشر وفـوري ولكـن ربمـا سـتكون لـه تداعيـات أكثـر وضوحـاً لاحقـاً. وقـد كشـفت الحـرب الراهنـة عـن رسـوخ حقيقـي للقضيـة الفلسـطينية في الوجـدان العربـي، خصوصـاً لـدى الأجيـال الأصغـر عمـراً التـي تتخـذ مـن الحـروب المتكـررة بين الإسرائيلـيين والفلسـطينيين مناسـبة للتعـرف بعمـق على القضيـة، ولابتـكار وسـائل جديـدة وغير تقليديـة لمسـاندتها ونشر الوعـي بهـا.

هنـا تجـدر الإشـارة إلى خطـورة اتسـاع الهـوة بين مواقـف بعـض الحكومـات والشـعوب في المنطقـة، تجـاه القضيـة الفلسـطينية، لما لذلـك مـن أثـر مبـاشر وسريـع على تـآكل شرعيـة هـذه الحكومـات ونمـو السـخط الشـعبي تجاهها. فالحصيلـة الثقيلـة للضحايـا المدنـيين تدفـع باسـتمرار للتفـكير في أدوات للتضامـن الشـعبي، وإذا مـا انسـدت القنـوات المشروعـة للتضامـن الشـعبي -خاصـة مـع ضعـف آليـات العدالـة والمحاسـبة- ربمـا انقلـب هـذا الشـعور بالتضامن إلى شـعور بالسـخط والرغبـة في الانتقـام. وهنـا يحـذر المراقبـون بشـكل جـدي مـن موجـة جديـدة لتجنيـد الشـباب والمراهـقين مـن قبـل التنظيمـات الإرهابيـة مثـل: داعـش والقاعـدة

باستغلال مقولات المظلومية الفلسطينية لتنفيذ هجمات "ذئاب منفردة" ضد المصالح الغربية في المنطقة أو ضد الحكومات التي لم تُبدِ تضامناً كافياً مع المأساة الفلسطينية[9].

لذا، فإن استمرار النزيف البشري في غزة لفترة طويلة لن يؤثر فقط في مفردات الأمن الإقليمي الجماعي ولكنه قد ينذر باضطرابات داخلية في عدد من الدول العربية قد لا تُحمد عقباها على المدى الطويل[10]. الأمر الذي يجعل من الدفع بالحلول الدبلوماسية، وتوطيد آليات التضامن بإدخال المساعدات، وصياغة خطط عاجلة لإعادة الإعمار، وإدارة مرحلة ما بعد الحرب، ليس ضرورياً فقط للتمهيد للحل النهائي العادل، ولكنه ضروري أيضاً لتحصين الأمن الإقليمي والأمن الداخلي لمختلف دول الإقليم.

المصادر:

1- Tova C. Norlén, "Middle East Pre-Existing Conditions: Regional Security after Covid-19", **Middle East Policy**, Volume 29, issue 1, https://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/mepo.12614

2- Jon Hoffman, "US Foreign Middle East Policy has failed", **Foreign Policy**, 11 January 2024, https://foreignpolicy.com/2024/01/11/israel-hamas-gaza-war-us-middle-east-policy-saudi-biden/

3- Ibrahim Ba Matraf & Assem Alkhadhami, "Iran and Operation Al-Aqsa Flood: Sacrificing the Pawn to save the King", **Carnegie Endowment for International Peace**, 18 January 2024, https://carnegieendowment.org/sada/91414

4- Mohammed Ali Thamer & Bettoul Dogan Akkas, "Red Sea Hostilities: Local, Regional and International Implications", **Carnegie Endowment for International Peace**, 30 January 2024, https://carnegieendowment.org/sada/91500

5- Thanassis Cambanis, "America has Stumbled into an Avoidable Middle East War", **The American Prospect**, 31 January 2024, https://prospect.org/world/2024-01-31-avoidable-middle-east-war/

6- Gabriel Gavin, Antonia Zimmermann & Laura Kayali, "The Gaza War is escalating: How bad will the Middle East crisis get?", **Politico**, 4 January 2024, https://www.politico.eu/article/gaza-israel-palestina-middle-east-red-sea-crisis/

7- Raphael S. Cohen, "the West's Incoherent critique of Israel's Gaza Strategy", **Foreign Policy**, 13 November 2023, https://foreignpolicy.com/2023/11/13/israel-hamas-war-gaza-idf-palestinians-civilians-hostages-tunnels-human-shields/

8- Sam Heller, "America needs to Prevent a Regional War in the Middle East", **Century Foundation**, 16 October 2023, https://tcf.org/content/commentary/america-needs-to-prevent-a-regional-war-in-the-middle-east/

9- Sherine Fahmy, "The War in Gaza and the Danger of Extremism", **Carnegie Endowment for International Peace**, 25 January 2024, https://carnegieendowment.org/sada/91464

10- Mira AlHussein, "the Gaza War may Radicalize the Gulf", **Carnegie Endowment for International Peace**, 16 January 2024, https://carnegieendowment.org/sada/91390